١٦١

هذا على طريق الرواية ومذاكرة العلم ومعرفة ما صح من العصمة للأنبياء وما
يجوز عليهم فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة إذ ليس فيه غمص ولا نقص
ولا ازدراء ولا استخفاف لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد اللافظ لكن يجب أن يكون
الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده ويحققون فوائده و
يجنب ذلك من عساه لا يفقه أو يخشى به فتنته فقد كره بعض السلف تعليم النساء
سورة يوسف لما انطوت عليه من تلك القصص لضعف معرفتهن ونقص عقولهن وإدراكهن
وقد قال عليه السلام مخبرا عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله وقال ما
من نبي إلا وقد رعى الغنم وأخبرنا الله بذلك عن موسى عليه السلام وهذا لا غضاضة فيه
جملة واحدة لمن ذكره على وجهه بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير بل كانت عادة
جميع العرب نعم في ذلك للأنبياء حكمة بالغة وتدريج لله تعالى لهم إلى كرامته وتدريب
برعايتها لسياسة أممهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ومتقدم العلم و
كذلك قد ذكر الله يتمه وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف بكرامته له
فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتداه والتعجب من منح الله قبله و — منح صح
عظيم منته عنده ليس فيه غضاضة بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته إذ أظهره
الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناواه من أشرافهم شيئا فشيئا
ونمى أمره حتى قهرهم وتمكن من ملك مقاليدهم واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم — ونمى صح
بإظهار الله له وتأييده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم وإمداده
بالملائكة المسومين ولو كان ابن ملك أو ذا أشياع متقدمين لحسب كثير من
الجهال أن ذلك موجب ظهوره ومقتضى علوه ولهذا قال هرقل حين سأل
أبا سفيان عنه هل في آبائه ملك لقلنا رجل يطلب ملك أبيه وإذا اليتم من صفته — ثم قال لو كان في آبائه ملك صح
وإحدى علاماته في الكتب المتقدمة وأخبار الأمم السالفة وكذا وقع ذكره
في كتاب أرمياء وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب وبحيرا لأبي طالب وكذلك
إذا وصفه الله به فهي مدحة له وفضيلة ثابتة فيه وقاعدة معجزته — بأنه أمي كما وصفه الله به صح

إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم
مع ما منح صلى الله عليه وسلم وفضل به من ذلك كما قدمناه في القسم الأول ووجود
مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لقن مقتضى العجب ومنتهى
العبر ومعجزة البشر وليس في ذلك نقيصة إذ المطلوب من الكتابة والقراءة
المعرفة وإنما هي آلة لها وواسطة موصلة إليها غير مرادة في نفسها فإذا
حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الواسطة والسبب والأمية في غيره
نقيصة لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة فسبحان من باين أمره من أمر غيره
وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه وحياته فيما فيه هلاك من هذا شق قلبه — عداه صح
وإخراج حشوته كان تمام حياته وغاية قوة نفسه وثبات روعه وهو فيمن سواه
منتهى هلاكه وحتم فنائه وهلم جرا إلى سائر ما روي من أخباره وسيره و
تقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب وتواضعه ومهنته نفسه في أموره
وخدمة بيته زهدا ورغبة عن الدنيا وتسويته بين حقيرها وخطيرها لسرعة فناء
أمورها وتقلب أحوالها كل هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرناه فمن أورد
شيئا منها مورده وقصد بها مقصده كان حسنا ومن أورد ذلك على غير وجهه وعلم منه
بذلك سوء قصده لحق بالفصول التي قدمناها وكذلك ما ورد من أخباره وأ
أخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث مما في ظاهره إشكال يقتضي أمورا
لا تليق بهم بحال ويحتاج إلى تأويل وتردد احتمال فلا يجب أن يتحدث منها
إلا بالصحيح ولا يروى منها إلا المعلوم الثابت ورحم الله مالكا فلقد كره التحدث
عن ذلك الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى وقال ما يدعو الناس
إلى التحدث بمثل هذا فقيل له إن ابن عجلان يحدث بها فقال لم يكن من الفقهاء
وليت الناس وافقوه على ترك التحدث بها وساعدوه على طيها فأكثرها ليس
تحته عمل وقد حكي عن جماعة من السلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام
فيما ليس تحته عمل والنبي عليه السلام أوردها على قوم عرب يفهمون كلام العرب

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)